

المبدعون الجدد يستلهمون السير الشعبية والملاحم في أعمالهم

الآداب والفنون ترسمان ملامح الحاضر بتوظيف الأساطير

عندما تقسو اللحظة الراهنة وتستحکم حلقاتها يصير الارتداد إلى الوراء وإلى الملاحم الشعبية حلاً جمالياً مقبولاً يحمل قدراً من الحرية والامتداد ويمنح المبدعين والفنانين مساحة من التحرر في تعبيرهم عن قضايا العصر وأزماته وصراعاته المستجدة من خلال الإسقاطات التي يقوم بها المبدعون في الآداب أو الفنون على حد السواء.

كما افتتحت في رمضان أيضاً مسرحية "التغريبة بنت الزناتي" بمسرح "البالون"، من إنتاج الفرقة القومية للموسيقى الشعبية، وإخراج منار زين. واستوحت جوانب من السيرة الهلالية برؤية جديدة ذات طابع أدائي حركي موسيقي بالتركيز على تفاصيل الصراع بين دياب بن غانم و"سعدى" بنت الزناتي الخليفة التي سلمت مفاتيح بلادها تونس لبني هلال وفق التصور المسرحي، وكانت سبباً في مقتل والدها الحاكم الزناتي خليفة.

وقد تمكن العرض من إبراز لواعج العشق والمشاعر الإنسانية المرهفة من بين ثانياً سطور السيرة الهلالية، بتكنيك سينمائي ولغة شفيفة استخدمت تعبيرات الجسد وإيماءاته بمرونة، إلى جانب النص المكتوب؛ على هامش الملحمة الشعبية.

ومظلمة أوضحت المسرحية احتياج العصر الراهن إلى أنبل ما يفقده الواقع والإنسانية، وهو "الحب الصادق الذي يتطلب التضحيات"، فكان التناول الغنائي والإنشادي الحديث للسيرة الهلالية استدعى الكثير مما تتضمنه من قيم ومثل أخلاقية وحكم ومواقف واستحضرت العمل مجموعة الأغنيات الشعبية للمنتشد الشباب وأهل الفشتي، التي انفتحت على تغريبة بني هلال ومربعات "ابن عروس" والإنشاد الصوفي والمواويل الصعيدية والترانيم الكسبية، إلى جانب "الأبونية" (أحد أنواع الشعر الشعبي العراقي) والسوان فلكلورية متجانسة، واستعانت بموسيقى الجاز والإيقاعات الأفريقية، وظهرت بعض هذه الأعمال في تترات الدراما التلفزيونية، كما في مسلسل "واحة الغروب"، و"طابع" وغيرها.

ولجات أعمال مسرحية أخرى إلى مزج تغريبة بني هلال العربية ونصوص من الأدب العالمي معاً لتوسعة دائرة التعاطي مع الموروث، وطرح قضايا معاصرة أكثر عمقا وتشعباً، كما في عرض "السيرة الهلالية" من تأليف الحسن محمد وإخراج محمد الصغير، الذي ظهر فيه "هاملت" شكسبير بطلا للتغريبة، كما حل أبو زيد الهلالي محل المنتقم في مسرحية شكسبير "أكون ولا ما أكونش؟ أأخذ بالنتار ولا ما أأخذش؟" (باللهجة الصعيدية)، في إطار كوميدي استعراضي ساخر، ما أبرز التناقضات

شريف الشافعي
كاتب مصري

ذهبت الكثير من الآداب والفنون العربية إلى صفحات التاريخ وأحداثه الزاخلة، إلا أن أعمالاً أخرى شعرية وسردية ودرامية وتشكيلية لجات في الفترة الماضية إلى السير الشعبية والملاحم والبطولات وغيرها من روافد الفلكلور العربي، للإسقاط على الواقع الحالي وتعريفه بصيغ حديثة ومعالجات مبتكرة.

في إطار الالتفات إلى الموروث الشعبي، المصري والعربي، لقيت السيرة الهلالية أو تغريبة بني هلال الاهتمام الأكبر من المبدعين، بوصفها القصة الملحمية الأبرز والأطول في الذاكرة الجمعية، وهي تتقصى حياة بني هلال منذ خروجهم من ديارهم في نجد حتى وصولهم إلى تونس، ومن أبرز أبطالها وشخصياتها الأمير أبو زيد الهلالي والزناتي خليفة، وتعد مصدراً أصيلاً للثقافة الشعبية العربية بوجه عام.

وتلقف الأدباء والفنانون والرسامون أعمالاً شعبية أخرى في نتاجاتهم المعاصرة، تنطوي في أغلب الأحوال على بطولات خارقة وأساطير وخرافات ومغامرات تشويقية وحكايات عاطفية ملتبهة وأجواء مثيرة باعثة على الحيوية والتفائل، مثل سيرة عنتره بن شداد، وسيرة الظاهر بيبرس، وملحمة أدهم الشرقاوي، وحواديت ألف ليلة وليلة، وقصة ياسين وبهية وغيرها من الأعمال الباقية عبر الزمن، التي استلهمت من أجل ما فيها من روح الانتصارات وملاحم الطاقة الإيجابية، عسى أن يتعشع الحاضر البائس، الذي تكاد تختفي فيه إشعاعات الأمل.

التغريبة الهلالية

من تمخّلت "السيرة الهلالية" في الأيام القليلة الماضية ما شهده بيت السحبي الأثري في شارع المعز لدين الله بالقاهرة الفاطمية من تقديم "ليالي السيرة الهلالية"، التي رواها الفنان عزت السوهاجي وفرقته ضمن فعاليات برنامج قطاع صندوق التنمية الثقافية خلال شهر رمضان.



هاملت شكسبير وتغريبة بني هلال في مسرحية «السيرة الهلالية»

واتخذت مسرحية "بهية" للمصممة والمخرجة كريمة بدير من حكاية ياسين وبهية في الفلكلور الشعبي منصة لإطلاق سهام العشق والدم والثورة والسياسة والنقد الاجتماعي. وبغض النظر عن أصل شخصية "ياسين"، وما إذا كان مُجرماً طارده العدالة في سنوات القرن العشرين الأولى، أو إنساناً شهياً شجاعاً وهب حياته للتصدي للظلم والباطل، فإن المسرحية (في إسقاطها على الحاضر) قد أنزلت منزلة البطل الشعبي والقائد المخلص من الظلم والقهر، العناصر للفلاحين الضعفاء على الإقطاعيين المستغلين، وحامل مشعل الثورة في وجه السلطة المستبدة وأعوانها.

ولحكايات ألف ليلة وليلة نصيب كبير كذلك من الحضور في الإبداعات الحديثة، كما في معرض التشكيلية إكرام عمر (81 عاماً) بغاليري "خان المغربي"، الذي أوزنت فيه بين أجواء "ألف ليلة وليلة" السحرية العجائبية، وعوالم رواية "ليالي ألف ليلة" لتجيب محقظه، منطلقاً من هذه الأقمشة التراثية نحو تصوير الحاضر الحي يعيون ناقد، حيث لم تعد "جنة الله على الأرض" تُنشد إلا في المدن الأسطورية والمندثرة، أما مدن الحاضر، فإنها للغبار والضجيج والنسيان.

على نكبات الوطن الجريح، الذي تحولت الحياة على أرضه، وخارجها، إلى محطات اغتراب وفقدان.

حكايات وملاحم

لم يتوقف استلهام الأعمال الإبداعية الحديثة لحكايات التراث الشعبي وملاحمه على السيرة الهلالية، فجاءت سيرة بطل المقاومة الشعبية أدهم الشرقاوي منبعاً لمسرحية "أدهم" لشباب المعهد العالي للفنون المسرحية في أكاديمية الفنون بالقاهرة؛ من تأليف نبيل فاضل وإخراج منار شملول.

وسعت المعالجة الفنية إلى تجسيد الواقع الراهن من خلال اقتنعة الماضي وشخصه، وتجاوزت المسرحية أحداث الفيلم السينمائي "أدهم الشرقاوي" في عام 1964، من تأليف زكريا الحجاوي وسيناريو سعد الدين وهبة، في تصويرها "البطل الشعبي" كقبط مركزي يجتذب حوله الفقراء والمقهورين والمغدورين، لمواجهة الظلم ومنظومة السلطة والفساد، والدعوة إلى الثورة والتمرد والمقاومة وإعادة الحقوق لأهلها.

من القصص الفرعية الأسطورية، غاص شعراء العامية والرواة والمثقفون، وعلى رأسهم عبدالرحمن الأبنودي الذي قدم السيرة الهلالية في مشروع ضخم متعدد الأجزاء، واقترن اسمه في توثيقها بالسيد الضوي، الذي اشتهر بروايتها على أنغام الربابة لسنوات طويلة قبل رحيله في 2016.

وقد اتخذ هذا الاتجاه الشعري الحكائي مداخل إلى الشرف والمجد والبطولة والفروسية، باعتبار أن هذه الأيقونات التراثية مفقودة أو نادرة في العصر الراهن المليء بالهزائم والانكسارات.

وعلى درب ذاته في توليد المفارقة بين الماضي والحاضر، مضى الكثيرون من شعراء العامية المصرية، مثل عبدالستار سليم، وهشام الجخ، وآخرين. وفي السرد الروائي المعاصر، حضرت تغريبة بني هلال بقوة، كما في رواية "عرب مال - ما لم يحكه جرمون في السيرة الهلالية"، للكاتب المصري أحمد عطا الله.

وفي الرواية، التي حصدت جائزة الدولة التشجيعية العام الماضي، اختلطت السيرة الهلالية بالتاريخ الشخصي للمؤلف، إلى جانب الإسقاط

والانقسامات الداخلية للإنسان، خصوصاً في مواجهة الحيوانات والإخفاقات وغيرها من سوءات العصر الحالي، وكل العصور. ولتغريبة بني هلال حضور واسع في سائر الفنون والآداب المصرية والعربية منذ سنوات طويلة، كما في مسلسل "السيرة الهلالية" ذي الأجزاء الثلاثة في أواخر التسعينات من تأليف يسري الجندي وإخراج مجدي أبوعميرة، والفيلم السينمائي "أبو زيد الهلالي" في الأربعينات للمخرج عز الدين ذو الفقار، وغيرهما من الأعمال الدرامية.

قصائد وروايات ومسرحيات ومعارض تشكيلية تتغذى على «تغريبة بني هلال» وأخواتها من السير الشعبية بمعالجات متجددة

وفي أبيات "السيرة الهلالية" الشعرية التي نسجها الخيال الشعبي في رسم الشخصيات واختلاق المئات

إدغار موران: الأزمة التي نمر بها فرصة لتغيير مسارنا

بأن "الأزمة التي نمر بها هي فرصة لإشارة الرغبة في تغيير المسار. وهذه الرغبة موجودة اليوم لدى الأقلية".

جامعة محمد السادس بين جريز استضافت موران الذي ناقش مفهوم «التعقيد» في مختلف تجلياته ومفاهيم الفرد والمجتمع

ورغم كل هذا الكم الهائل من المشاكل التي عدها يبدو موران متفاناً، فحسب رأيه فإنه بالإمكان تجاوز كل ذلك إذا تحلينا بالشجاعة، فمن الشجاعة اليوم أن نخسر في سبيل جديد، لتجنب كوارث محتملة، قد تكون أشد خطورة من الكوفيد - 19.

ونذكر أن الفرنسي إدغار موران من مواليد 1921 ويعتبر من المفكرين المعرفيين الذين استضاعوا الإنسانية من أفكارهم. وطيلة مسيرته زواج موران بين طلب العلم والنضال من أجل قضايا عادلة، وهو مسار لا يزال ينتهج إلى اليوم، ويعتبر هذا "الشيخ الشاب" كما يلقب نفسه، الإنسان رهبانه الأول والأخير.

كتاب "التغير السبيل، دروس فايروس كورونا" لإدغار موران.

وضمن كتابه بعض العبر بهم البشرية بأسرها، وبعضها يخص بلاده فرنسا، فقد أوضح أن الأزمة كشفت بجلاء نقائص سياسة قُدمت رأس المال على العمل، وضُخت بالحيلة والوقاية باسم المردودية والتنافسية.

ويرى موران أن هذه الجائحة قد غيرت علاقتنا بالموت، لأن الحداثة العلمانية كتبت شبحه، ولم يبق له حضور إلا في أذهان المؤمنين، ثم جاء فايروس ليعيد الموت إلى رهن المعيش اليومي، ولأسيما الموت الفردي الذي طالما كان يتم إرجاؤه إلى المستقبل. غير أنه ظهر في أشبع صورة، أملاها الواقع الصحي بحرماته الطوقس الضرورية لتثبيت الغياب اجتماعياً، وقد أعرب حتى العلمانيون مثل موران أن الإنسان يحتاج إليها ليحيا في الأذهان صورة الشخص الميت، ويخفف ما يصيبه من ألم.

يقول موران إن كل حياة هي مغامرة غير مضمونة، فنحن لا ندرى مسبقاً كيف تكون حياتنا المهنية، ولا كيف ستكون صحتنا أو عواطفنا، ولا ما سوف يحدث، رغم أننا نعرف أن موتنا محتم. وردا على سؤال عن "توقعاته للإنسانية في عام 2021"، أجاب موران

للتعقيد لتحسين "قراراتنا وأفعالنا في العالم".

ومن المؤلفات التي صدرت مؤخراً أثناء جائحة كورونا، وصدت مظاهر الخلل واستخلصت منها عبرا، وسعت إلى تقديم ما يمكن اعتبارها نصائح



بفضل تعقيد بنيتة فالإنسان قادر على التنظيم الذاتي

وباختصار، كل كائن معقد يعتمد على بيئته، كما يقول موران، مستعرضاً كمنال الكلمة التي تأخذ معناها فقط في سياق الجملة.

وانتهز موران هذه الفرصة للتأكيد على ضرورة تعليم المفاهيم الأساسية في وقت حرج، لتجتمع وتشكل جبهة موحدة.

وهذا الأسلوب في الحياة هو استثناء مشابه لنمط عيش الإنسان، لأنه بعيدا عن الأثنية، يحتاج البشر أيضاً إلى الحب والحنان والصداقة، أي "الاحتياجات التكميلية".

وأوضح أن "المجتمع لا يوجد إلا من خلال التفاعلات بين الأفراد، كل له صفاته الخاصة والتي لا يمتلكها الفرد"، مضيفاً أن "الأفراد هم أيضاً نتاج للمجتمع، لأنهم بحاجة إلى التعليم والثقافة واللغة".

الفرنسية، هذا "الكل المنظم" بنظام منتج للجودة، مشيراً إلى أن "الكائن الحي بفضل تعقيد بنيتة قادر على التنظيم الذاتي".

وهذا التنظيم الذاتي، حسب موران، يأتي بعد "تلاشي الطاقة، ليس فقط من خلال نشاطنا البدني ولكن أيضاً بسبب احتياجنا المتكررة (على سبيل المثال: الغذاء)، لأننا نعلمت كليا على المكان الذي نوجد فيه".

وتطرق الفيلسوف إلى ظاهرة "التعقيد الحي"، ليُعمم ويقارن أسلوب حياة الكائنات مقارنة بنمط حياة الأفراد. "الأولى تتغذى وتذافع عن نفسها وفقاً لمبدأ أناني، وفي نفس الوقت تواصل في ما بينها وعندما تكون في وضع حرج، تجتمع وتشكل جبهة موحدة".

ومن ناحية أخرى، فإن العدو الحقيقي للتعقيد حسب رأيه، هو "التبسيط الذي يمكن تحقيقه تدريجياً".

ويذهب مؤلف أكثر من 100 كتاب (مترجم إلى 28 لغة) إلى أبعد من ذلك في التحليل، ويوضح أن التعقيد في أي نظام "عبارة عن مجموعة من العناصر المرتبطة ببعضها البعض في تنظيم منتج، هو وفق وصفه الدقيق، "كل منظم". ويشسبه "وحش الفلسفة المقدس" كما تصفه وسائل الإعلام